مُهَذَّبُ خُطْبَةِ:

مَفْهُومُ الْعِبَادَةِ

جَمْعُ وَتَرْتِيبُ
مِنْ خُطَبِ وَمُحَاضَرَاتِ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ
أَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدِ رَسْلَان
حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَوَّلَ مَا يَجِبُ عَلَىٰ الْعِبَادِ مَعْرِفَةُ الْأَمْرِ الَّذِي خَلَقَهُمُ اللهُ لَهُ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ بِهِ، وَأَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ إِلَيْهِمْ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ عَلَيْهِمْ، وَلِأَجْلِهِ خُلِقَتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ، وَبِهِ حَقَّتِ الْحَاقَّةُ وَوَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ، وَفِي شَأْنِهِ تُنْصَبُ الْمَوَازِينُ وَتَتَطَايَرُ الصُّحُفُ، وَفِيهِ تَكُونُ الشَّقَاوَةُ وَالسَّعَادَةُ، وَعَلَىٰ حَسَبِهِ تُقَسَّمُ الْأَنْوَارُ، ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

إِنَّ الْمَقْصِدَ الَّذِي لِأَجْلِهِ خَلَقَنَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُوَ الْعِبَادَةُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

مَعْنَى الْعِبَادَةِ

الْعِبَادَةُ: «اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ»(١).

وَقِيلَ: الْعِبَادَةُ: اسْمٌ يَجْمَعُ كَمَالَ الْحُبِّ للهِ وَنِهَايَتَهُ، وَكَمَالَ الذُّلِّ للهِ وَنِهَايَتَهُ، فَهِيَ كَمَالُ حُبٍّ فِي كَمَالِ ذُلٍّ.

وَقِيلَ: عِبَادَةُ اللهِ: طَاعَتُهُ بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ وَتَرْكِ الْمَحْذُورِ»(٢).

*** مِنْ مَعَانِي كَلِمَةِ «الْعِبَادَةِ» فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:**

«وَقَدْ وَرَدَتْ كَلِمَةُ (الْعِبَادَةِ) فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ عَلَىٰ مَعَانٍ، فَذَكَرَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ أَنَّ الْعِبَادَةَ فِي الْقُرْآنِ عَلَىٰ وَجْهَيْنِ:

أَحَدِهِمَا: التَّوْحِيدُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ- فِي سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦] أَيْ: وَحِّدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.

فَالْعِبَادَةُ هَاهُنَا: التَّوْحِيدُ.

الثَّانِي: الطَّاعَةُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠].

وَفِي سَبَأٍ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠]»(٣).

فَمِنْ مَعَانِي كَلِمَةِ (الْعِبَادَةِ) فِي الْكِتَابِ الْمَجِيدِ: التَّوْحِيدُ، وَالطَّاعَةُ.

*** حَقِيقَةُ الْعِبَادَةِ:**

وَأَمَّا حَقِيقَةُ الْعِبَادَةِ؛ فَأَصْلُ الْعِبَادَةِ: التَّذَلُّلُ وَالْخُضُوعُ، وَسُمِّيَتْ وَظَائِفُ الشَّرْعِ عَلَىٰ الْمُكَلَّفِينَ عِبَادَاتٍ؛ لِأَنَّهُمْ يَلْتَزِمُونَهَا وَيَفْعَلُونَهَا خَاضِعِينَ مُتَذَلِّلِينَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

---

(١) هَذَا تَعْرِيفُ ابْنِ تَيْمِيَّةَ فِي «**الْعُبُودِيَّةِ**» ضِمْنَ «**مَجْمُوعِ الْفَتَاوَىٰ**»: (١٠/ ١٤٩).

(٢) «الْعُبُودِيَّةُ» لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ (٥)، وَ«تَيْسِيرُ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» (٤٧)، وَ«قُرَّةُ عُيُونِ الْمُوَحِّدِينَ» (١٥)، وَ«فَتْحُ الْمَجِيدِ» (١٤).

(٣) «نُزْهَةُ الْأَعْيُنِ النَّوَاظِرِ» (٤٣١-٤٣٢).

عُبُودِيَّةُ الْخَلْقِ للهِ جَلَّ وَعَلَا عَلَىٰ قِسْمَيْنِ:

- **عُبُودِيَّةٍ عَامَّةٍ.**

- **وَعُبُودِيَّةٍ خَاصَّةٍ.**

فَالْعُبُودِيَّةُ الْعَامَّةُ: هِيَ عُبُودِيَّةُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَكُلُّ مَنْ سِوَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ- عَبِيدٌ لَهُ -سُبْحَانَهُ- بِاعْتِبَارِهِمْ مَرْبُوبِينَ لَهُ مَقْهُورِينَ لَهُ مُسَخَّرِينَ، يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ كَيْفَ يَشَاءُ، لَا يَخْرُجُونَ عَنْ مُلْكِهِ وَتَدْبِيرِهِ.

هَذِهِ الْعُبُودِيَّةُ عَامَّةٌ لِلْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، وَفِيهِمُ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَالْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، فَكُلُّ مَنْ سِوَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ- دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ، لَا تَنْفَكُّ عَنْهُ فِي حَالٍ وَلَا حِينٍ.

الْعُبُودِيَّةُ الْعَامَّةُ هِيَ الْمُرَادَةُ بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وَفِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ: «**خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ**»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ».

أَمَّا الْعُبُودِيَّةُ الْخَاصَّةُ؛ فَمَوْصُوفٌ بِهَا مَنْ حَقَّقَ لَازِمَ تِلْكَ الْعُبُودِيَّةِ الْعَامَّةِ؛ بِأَنْ يَصْرِفَ كَمَالَ الْخُضُوعِ وَالْمَحَبَّةِ وَالِانْقِيَادِ للهِ ﷻ وَحْدَهُ دُونَ سِوَاهُ.

وَهَذِهِ الْعُبُودِيَّةُ -يَعْنِي: الْعُبُودِيَّةَ الْخَاصَّةَ- هِيَ دَعْوَةُ الرُّسُلِ إِلَىٰ أَقْوَامِهِمْ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وَهِيَ فَارِقُ مَا بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ.

مَفْهُومُ الْعِبَادَةِ وَحَقِيقَتُهَا فِي الْإِسْلَامِ

حَقِيقَةُ الْعِبَادَةِ: اسْتِسْلَامُ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ للهِ حُبًّا وَخُضُوعًا لَهُ، وَخَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلْبَتَّةَ، فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ.

---

(١) «**صحيح مسلم**»: ٤/ ٢١٩٧، رقم (٢٨٦٥)، من حديث: عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه.

مَفْهُومُ الْعِبَادَةِ فِي الْإِسْلَامِ: أَنْ يَكُونَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ ضَمِيرُ الْإِنْسَانِ وَجَمِيعُ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ لِأَجْلِ اللهِ ﷻ عَلَىٰ مُرَادِهِ، لَا يَكْفِي أَنْ يَكُونَ لِأَجْلِ اللهِ ﷻ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْقَيْدِ الثَّانِي، وَهُوَ: عَلَىٰ مُرَادِهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يُخْلِصُونَ بِأَلْوَانٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْمُخْتَرَعَةِ؛ وَلَكِنَّهُمْ لَا يُوَافِقُونَ بِهَا الِاتِّبَاعَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَالْمَعْنَىٰ إِذَنْ؛ أَنَّ كُلَّ حَرَكَةٍ يَقُومُ بِهَا الْمُسْلِمُ فِي حَيَاتِهِ يَكُونُ الدَّافِعُ لِفِعْلِهَا رَجَاءَ مَحَبَّةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ، فَقَوْلُ الْقَوْلِ للهِ وَتَرْكُهُ لَهُ، وَفِعْلُ الْفِعْلِ للهِ وَتَرْكُهُ لَهُ، وَهَكَذَا حَيَاتُهُ كُلُّهَا تَكُونُ عِبَادَةً للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ بَلْ وَمَوْتُهُ يَكُونُ للهِ جَلَّ وَعَلَا، كَمَا قَالَ -تَعَالَىٰ- آمِرًا نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يُقَرِّرَ هَذَا لِلنَّاسِ: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣].

مِنْ أَمْثِلَةِ الْعِبَادَةِ -أَيْضًا-: طَلَبُ الْعِلْمِ، وَطَلَبُ الرِّزْقِ وَالنَّفَقَةِ عَلَىٰ الْأَهْلِ وَالْأَوْلَادِ لِأَجْلِ تَرْبِيَتِهِمْ، وَكَذَلِكَ مُعَامَلَةُ النَّاسِ بِالْحُسْنَىٰ، وَالتَّحَلِّي بِالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ.

بَلْ إِنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ أَسْبَغَ عَلَىٰ جَمِيعِ أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ صِفَةَ الْعِبَادَةِ إِذَا قَصَدَ بِهَذِهِ الْأَعْمَالِ وَجْهَ اللهِ -تَعَالَىٰ- وَمَرْضَاتَهُ، وَقَامَ بِهَا عَلَىٰ الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ الْمُوَافِقِ لِلسُّنَّةِ، وَكَانَتْ فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِ أَهْدَافِهَا الْمَقْصُودَةِ الْمَشْرُوعَةِ.

وَعَلَيْهِ فَكُلُّ صُوَرِ الْحَيَاةِ مِنْ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ تَكُونُ عِبَادَةً للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ هَذَا لِتَتَحَوَّلَ الْحَيَاةُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا إِلَىٰ عِبَادَةٍ للهِ -تَعَالَىٰ- كَمَا أَرَادَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا، فَالْمُزَارِعُ وَالصَّانِعُ وَالتَّاجِرُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْأَعْمَالِ تُعْتَبَرُ أَعْمَالُهُمْ عِبَادَةً إِذَا قَصَدَ بِهَا كُلٌّ مِنْهُمْ نَفْعَ عِبَادِ اللهِ، وَالِاسْتِغْنَاءَ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَىٰ النَّاسِ، وَإِعَالَةَ الْعِيَالِ تَحْقِيقًا لِأَمْرِ اللهِ ﷻ.

وَعَلَىٰ هَذَا فَكُلُّ مَا أُمِرَ بِهِ شَرْعًا -سَوَاءٌ كَانَ مِنَ الشَّعَائِرِ، أَوْ مِنْ سَائِرِ أَحْوَالِ النَّاسِ- إِذَا ابْتَغَىٰ بِهِ فَاعِلُهُ وَجْهَ اللهِ -تَعَالَىٰ- فَهُوَ عِبَادَةٌ؛ سَوَاءٌ رَتَّبَ الشَّارِعُ عَلَيْهِ جَزَاءً مُحَدَّدًا، أَمْ أَتَىٰ الْأَمْرُ بِهِ مُطْلَقًا دُونَ تَحْدِيدِ جَزَاءٍ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ.

فَمِثَالُ مَا رُتِّبَ عَلَىٰ فِعْلِهِ جَزَاءٌ، وَيَحْصُلُ لِلْمُسْلِمِ هَذَا الْجَزَاءُ إِذَا كَانَ فِعْلُهُ مِنْ أَجْلِ اللهِ: مَا رَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ سُلَامَىٰ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَىٰ الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الصُّلْحِ: بَابُ فَضْلِ الإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ...، (٢٧٠٧)، وَمُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الزَّكَاةِ: بَابُ بَيَانِ أَنَّ اسْمَ الصَّدَقَةِ يَقَعُ عَلَىٰ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْمَعْرُوفِ، (١٠٠٩)،

فَاشْتَمَلَ الْحَدِيثُ عَلَىٰ بَعْضِ الْآدَابِ، وَجَعَلَ الشَّارِعُ الْقِيَامَ بِهَا عِبَادَةً يُثَابُ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُ إِذَا نَوَىٰ أَنَّهُ إِنَّمَا قَامَ بِهَا مِنْ أَجْلِ اللهِ جَلَّوَعَلَا.

كَمَا أَنَّ التَّحَلِّيَ بِالْأَخْلَاقِ عِبَادَةٌ -أَيْضًا-؛ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَىٰ أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَمَثَلُ مَا أُمِرَ بِهِ شَرْعًا وَلَمْ يُحَدَّدْ عَلَىٰ فِعْلِهِ جَزَاءٌ، وَيُعْتَبَرُ الْقِيَامُ به عِبَادَةً إذا نُوِيَ بِهَا الْقُرْبَةُ للهِ، وَيُؤْجَرُ عَلَيْهَا؛ مَثَلُ هَذَا: إِجَابَةُ دَعْوَةِ الْمُسْلِمِ، قَالَ ﷺ: «**إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ فَلْيُجِبْ، فَإِنْ كَانَ صَائِمًا فَلْيُصَلِّ، وَإِنْ كَانَ مُفْطِرًا فَلْيَطْعَمْ**»(٢). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

فَمَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ فِي إِجَابَةِ الدَّعْوَةِ امْتِثَالَ أَمْرِ الرَّسُولِ ﷺ، وَإِدْخَالَ السُّرُورِ عَلَىٰ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ؛ كَانَ فِعْلُهُ عِبَادَةً، أَمَّا مَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ نِيَّةٌ فِي إِجَابَتِهَا فَلَا يُعْتَبَرُ قَدْ قَامَ بِعِبَادَةٍ، وَهَذَا يَنْطَبِقُ عَلَىٰ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ شُؤُونِ الْحَيَاةِ؛ مِنْ مَأْكَلٍ، وَمَشْرَبٍ، وَمَنْكَحٍ، وَنَوْمٍ، وَيَقَظَةٍ، وَسَفَرٍ، وَإِقَامَةٍ.. وَهَكَذَا، فَمَنْ نَوَىٰ بِكُلِّ هَذِهِ الْأُمُورِ وَأَمْثَالِهَا وَجْهَ اللهِ فَهِيَ عِبَادَةٌ مَأْجُورٌ عَلَيْهَا، وَكُلَّمَا كَانَتِ النِّيَّةُ أَشْمَلَ كَانَ الْأَجْرُ أَعْظَمَ؛ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ**»(٣). كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَىٰ صِحَّتِهِ.

لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ النِّيَّةِ، وَلَا بُدَّ مِنْ مُوَافَقَةِ السُّنَّةِ، وَ-كَمَا مَرَّ- تَجِدُ الْمُوَفَّقَ تَتَحَوَّلُ عَادَاتُهُ إِلَىٰ عِبَادَاتٍ بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ، وَأَمَّا الْمَخْذُولُ فَتَتَحَوَّلُ عِبَادَاتُهُ إِلَىٰ عَادَاتٍ، النَّاسُ كُلُّهُمْ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَأَكْثَرُهُمْ يَتَنَاسَلُونَ وَيَتَنَاكَحُونَ؛ وَلَكِنْ هَذِهِ الْأُمُورُ الَّتِي تَقَعُ مِنَ الْكَائِنِ الْإِنْسَانِيِّ فِطْرَةً فَطَرَهُ اللهُ عَلَيْهَا تَصِيرُ عِبَادَةً للهِ -تَعَالَىٰ- بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ الصَّادِقَةِ.

النَّاسُ يَأْكُلُونَ؛ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ الْحَاذِقَ يَأْكُلُ بِنِيَّةٍ؛ يَأْكُلُ بِنِيَّةِ التَّمَتُّعِ بِمَا أَحَلَّ اللهُ -تَعَالَىٰ- لَهُ، وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَقَوَّىٰ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ عَلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَعَلَىٰ الضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ لِتَحْصِيلِ الرِّزْقِ؛ لِيَمُونَ نَفْسَهُ وَمَنْ يَعُولُ، فَيَكُونُ أَكْلُهُ وَشُرْبُهُ -حِينَئِذٍ- عِبَادَةً للهِ جَلَّوَعَلَا.

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الْبِرِّ وَالصِّلَةِ: بَابُ اسْتِحْبَابِ طَلَاقَةِ الْوَجْهِ عِنْدَ اللِّقَاءِ، (٢٦٢٦).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ النِّكَاحِ: بَابُ الْأَمْرِ بِإِجَابَةِ الدَّاعِي إِلَىٰ دَعْوَةٍ، (١٤٣١).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ بَدْءِ الوَحْيِ: باب كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الوَحْيِ..، (١)، وَمُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الْإِمَارَةِ: بَابُ قَوْلِهِ «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ»، (١٩٠٧)، من حديث: عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه.

حَتَّىٰ نَوْمُهُ يَكُونُ عِبَادَةً للهِ جَلَّوَعَلَا بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ، فَإِذَا مَا شَرَعَ فِي النَّوْمِ بِنِيَّةِ أَنْ يَتَقَوَّىٰ بِنَوْمِهِ عَلَىٰ طَاعَةِ رَبِّهِ تَبَارَكَ‌وَتَعَالَىٰ، وَعَلَىٰ الضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ لِتَحْصِيلِ الرِّزْقِ الْحَلَالِ؛ فَهَذَا النَّوْمُ عِبَادَةٌ للهِ تَبَارَكَ‌وَتَعَالَىٰ، وَهُوَ مَا فَطَرَ اللهُ تَبَارَكَ‌وَتَعَالَىٰ عَلَيْهِ الْكَائِنَ الْإِنْسَانِيَّ؛ لَكِنَّ هَذِهِ الْعَادَاتِ تَتَحَوَّلُ إِلَىٰ عِبَادَاتٍ بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ عِنْدَ الْمُوَفَّقِ، وَأَمَّا الْمَخْذُولُ فَتَتَحَوَّلُ عِبَادَاتُهُ إِلَىٰ عَادَاتٍ.

قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللهُ: «رُبَّ عَمَلٍ صَغِيرٍ تُعَظِّمُهُ النِّيَّةُ، وَرُبَّ عَمَلٍ كَبِيرٍ تُصَغِّرُهُ النِّيَّةُ»(١).

أَمَّا مَنْ لَمْ يَنْوِ شَيْئًا فَلَيْسَتْ سِوَىٰ أَفْعَالٍ عَادِيَّةٍ؛ لِذَا تَبَايَنَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ تَبَايُنًا عَظِيمًا، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ كُلُّ عَادَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ عِبَادَةٌ للهِ؛ لِأَنَّهُ مُحْضِرٌ لِنِيَّتِهِ، قَاصِدٌ وَجْهَ اللهِ بِذَلِكَ، بَيْنَمَا بَعْضُ النَّاسِ قَدْ تَكُونُ كُلُّ عِبَادَاتِهِ -حَتَّىٰ الشَّعَائِرِ أَوْ بَعْضِهَا- عَادَاتٍ؛ وَذَلِكَ لِخُلُوِّ قَلْبِهِ مِنْ نِيَّةِ التَّقَرُّبِ للهِ جَلَّوَعَلَا.

وَعَلَىٰ هَذَا فَالْعِبَادَةُ تَشْمَلُ قَوْلَ اللِّسَانِ وَالْقَلْبِ، وَعَمَلَ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ(٢): «وَبُنِيَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ عَلَىٰ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ: التَّحَقُّقُ بِمَا يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَيَرْضَاهُ مِنْ قَوْلِ اللِّسَانِ وَالْقَلْبِ، وَعَمَلِ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ، فَالْعُبُودِيَّةُ اسْمٌ جَامِعٌ لِهَذِهِ الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ، فَأَصْحَابُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حَقًّا هُمْ أَصْحَابُهَا.

فَقَوْلُ الْقَلْبِ: هُوَ اعْتِقَادُ مَا أَخْبَرَ اللهُ -سُبْحَانَهُ- بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَلِقَائِهِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُ اللِّسَانِ: فَالْإِخْبَارُ عَنْهُ بِذَلِكَ، وَالدَّعْوَةُ إِلَيْهِ، وَالذَّبُّ عَنْهُ، وَتَبْيِينُ بُطْلَانِ الْبِدَعِ الْمُخَالِفَةِ لَهُ، وَالْقِيَامُ بِذِكْرِهِ، وَتَبْلِيغُ أَوَامِرِهِ.

وَأَمَّا عَمَلُ الْقَلْبِ: فَكَالْمَحَبَّةِ لَهُ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالْخَوْفِ مِنْهُ، وَالرَّجَاءِ لَهُ، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ، وَالصَّبْرِ عَلَىٰ أَوَامِرِهِ وَعَنْ نَوَاهِيهِ، وَعَلَىٰ أَقْدَارِهِ، وَالرِّضَا بِهِ وَعَنْهُ، وَالْمُوَالَاةِ فِيهِ، وَالْمُعَادَاةِ فِيهِ، وَالذُّلِّ لَهُ وَالْخُضُوعِ، وَالْإِخْبَاتِ إِلَيْهِ وَالطُّمَأْنِينَةِ بِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ الَّتِي فَرْضُهَا أَفْرَضُ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، وَمُسْتَحَبُّهَا أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنْ مُسْتَحَبِّهَا، وَعَمَلُ الْجَوَارِحِ بِدُونِهَا إِمَّا عَدِيمُ الْمَنْفَعَةِ أَوْ قَلِيلُ الْمَنْفَعَةِ.

---

(١) «**سير أعلام النبلاء**» (٨/ ٤٠٠، ترجمة عَبْدُ اللهِ بنُ المُبَارَكِ: ١١٢).

(٢) «**مَدَارِجُ السَّالِكِينَ**»: (١/ ١٢٠-١٢١).

وَأَمَّا أَعْمَالُ الْجَوَارِحِ: فَكَالصَّلَاةِ، وَالْجِهَادِ، وَنَقْلِ الْأَقْدَامِ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَاتِ، وَمُسَاعَدَةِ الْعَاجِزِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَىٰ الْخَلْقِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ».

الدِّينُ كُلُّهُ عِبَادَةٌ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا شُرِعَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُبَيِّنَ لِلْإِنْسَانِ مَنْهَجَ حَيَاتِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَلِيُحَدِّدَ سُلُوكَهُ وَعَلَاقَاتِهِ بِالْآخَرِينَ؛ بَلْ إِنَّ عِبَادَةَ اللهِ تَسَعُ الْحَيَاةَ كُلَّهَا؛ مِنْ آدَابِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَقَضَاءِ الْحَاجَةِ، إِلَىٰ بِنَاءِ الدَّوْلَةِ، وَسِيَاسَةِ الْمَالِ، وَشُؤُونِ الْمُعَامَلَاتِ وَالْعُقُوبَاتِ، وَالْعَلَاقَاتِ الدَّوْلِيَّةِ فِي الْحَرْبِ وَالسِّلْمِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شُؤُونِ الْحَيَاةِ، هَذِهِ كُلُّهَا عِبَادَةٌ للهِ جَلَّوَعَلَا؛ لِذَلِكَ خَاطَبَ اللهُ -تَعَالَىٰ- عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ بِأَوَامِرَ شَامِلَةٍ لِجَمِيعِ شُؤُونِ الْحَيَاةِ، وَلَيْسَتْ مَقْصُورَةً عَلَىٰ الشَّعَائِرِ وَحْدَهَا كَمَا يَفْهَمُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ!!

فَهُمْ لَا يَفْهَمُونَ مِنْ كَلِمَةِ «الْعِبَادَةِ» إِذَا ذُكِرَتْ سِوَىٰ الصَّلَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَالصَّدَقَةِ، وَالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَدْعِيَةِ وَالْأَذْكَارِ، وَلَا يُضِيفُونَ إِلَىٰ ذَلِكَ، وَلَا يَعْتَدُّونَ بِأَنَّهُ مِنْهُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ، أَوِ النُّظُمِ، أَوِ التَّقَالِيدِ وَالْعَادَاتِ، كَمَا يَحْسَبُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُمْ إِذَا قَامُوا بِهَذِهِ الشَّعَائِرِ فَقَدْ وَفَّوُا الْأُلُوهِيَّةَ حَقَّهَا، وَقَامُوا بِوَاجِبِ الْعُبُودِيَّةِ للهِ، وَهَذَا خَطَأٌ كَبِيرٌ وَضَلَالٌ مُبِينٌ.

هَذِهِ الشَّعَائِرُ الْعَظِيمَةُ وَالْأَرْكَانُ الرَّئِيسَةُ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ لَهَا قِيمَتُهَا وَقَدْرُهَا؛ لَكِنَّهَا لَا تَعْنِي أَنَّهَا كُلُّ الْعِبَادَةِ، إِنَّمَا هِيَ جُزْءٌ مِنَ الْعِبَادَاتِ للهِ، وَلَيْسَتْ كُلَّ الْعِبَادَةِ الَّتِي يُرِيدُهَا اللهُ -تَعَالَىٰ- مِنْ عِبَادِهِ.

لِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ**»(١).

فَقَالَ ﷺ: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ**»، فَهَذِهِ مَا يُبْنَىٰ عَلَيْهِ، فَهِيَ جُزْءٌ مِنَ الْبِنَاءِ وَأَسَاسٌ لَهُ وَأَرْكَانٌ، وَلَيْسَتِ الْبِنَاءَ كُلَّهُ، بَلْ هُنَاكَ مَا يُبْنَىٰ عَلَىٰ هَذِهِ الْأَرْكَانِ، كَمَا هُوَ وَاضِحٌ مِنْ لَفْظِ الْحَدِيثِ: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ**»، فَهَذِهِ مَا بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَيْهَا، هِيَ أَرْكَانُهُ وَأُسُسُهُ وَأُصُولُهُ، وَالْإِسْلَامُ مَبْنِيٌّ عَلَيْهَا، وَهِيَ أَرْكَانُهُ وَأَسَاسُهُ.

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الإِيمَانِ: بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّà : «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ»...، (٨)، وَمُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الإِيمَانِ: بَابُ قول النَّبِيِّ ﷺ بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ، (١٦)، من حديث: ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

فَدَائِرَةُ الْعِبَادَةِ الَّتِي خَلَقَ اللهُ لَهَا الْإِنْسَانَ، وَجَعَلَهَا غَايَتَهُ فِي الْحَيَاةِ وَمُهِمَّتَهُ فِي الْأَرْضِ دَائِرَةٌ رَحْبَةٌ وَسِيعَةٌ، تَشْمَلُ شُؤُونَ الْإِنْسَانِ كُلَّهَا، وَتَسْتَوْعِبُ حَيَاتَهُ جَمِيعَهَا، وَهَذَا مَا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِهِ، وَعَلَّمَهُ الرَّسُولُ ﷺ أَصْحَابَهُ، وَالْأَدِلَّةُ مِنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَىٰ.

النَّبِيُّ ﷺ عَلَّمَ أَصْحَابَهُ أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ يَقُومُ بِهِ الْمُسْلِمُ فَهُوَ عِبَادَةٌ إِذَا قُصِدَ بِهِ وَجْهُ اللهِ؛ حَتَّىٰ إِنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ بَعْضًا مِنَ الْقُرُبَاتِ إِلَىٰ اللهِ ذَكَرَ مِنْ بَيْنِهَا: مُبَاضَعَةَ الرَّجُلِ لِزَوْجَتِهِ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: «إِنَّ أُنَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ -يَعْنِي: أَنَّ أَهْلَ الْأَمْوَالِ ذَهَبُوا بِالْأَجْرِ- يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ -يَعْنِي: وَلَا نَمْلِكُ نَحْنُ أَمْوَالًا نَتَصَدَّقُ بِهَا-».

قَالَ «**أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ بِهِ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**».

قَالُوا: «يَا رَسُولَ اللهِ! أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟!!».

قَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ قَضَاءَ شَهْوَةِ الْمَرْءِ لِامْرَأَتِهِ عَلَىٰ النَّحْوِ الَّذِي بُيِّنَ فِي الشَّرْعِ.. جَعَلَ ذَلِكَ صَدَقَةً؛ حَتَّىٰ إِنَّ الصَّحَابَةَ رضي الله عنهم تَعَجَّبُوا فَتَسَاءَلُوا: «أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟!!».

فَبَيَّنَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْبَيَانِ النَّبَوِيِّ الشَّفِيفِ هَذَا الْمَعْنَىٰ، فَقَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**».

فَمَا بَالُكَ بِمَا فَوْقَ ذَلِكَ مِمَّا يُتَعَبَّدُ بِهِ إِلَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ- بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ؟!!

فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُثِبْتَ عَلَيْهَا؛ حَتَّىٰ اللُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ**»(٢).

حَتَّىٰ اللُّقْمَةُ يَجْعَلُهَا الرَّجُلُ فِي فَمِ امْرَأَتِهِ يُثَابُ عَلَيْهَا.

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الزَّكَاةِ: بَابُ بَيَانِ أَنَّ اسْمَ الصَّدَقَةِ يَقَعُ عَلَىٰ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْمَعْرُوفِ، (١٠٠٦).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الإِيمَانِ: بَابٌ مَا جَاءَ إِنَّ الأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ...، (٥٦)، وَمُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الْوَصِيَّةِ: بَابُ الْوَصِيَّةِ بِالثُّلُثِ، (١٦٢٨).

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَىٰ أَهْلِهِ نَفَقَةً يَحْتَسِبُهَا فَهِيَ لَهُ صَدَقَةٌ**»(١).

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ**»(٢).

هَذَا مَفْهُومٌ شَامِلٌ لِلْعِبَادَةِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ الَّذِي فَهِمَهُ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ السَّلَفِ، كَمَا قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه(٣): «لَكِنِّي أَنَامُ ثُمَّ أَقُومُ، فَأَحْتَسِبُ نَوْمَتِي كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمَتِي».

كَمَا مَرَّ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النِّيَّةِ الصَّالِحَةِ؛ حَتَّىٰ فِي النَّوْمِ.

قَالَ زُبَيْدٌ الْيَامِيُّ(٤): «إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ تَكُونَ لِي نِيَّةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ حَتَّىٰ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ».

وَقَالَ ابْنُ رَجَبٍ رحمه الله(٥): «قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْمُلَ لَهُ عَمَلُهُ فَلْيُحَسِّنْ نِيَّتَهُ؛ فَإِنَّ اللهَ عز وجل يُؤْجِرُ الْعَبْدَ إِذَا أَحْسَنَ نِيَّتَهُ؛ حَتَّىٰ بِاللُّقْمَةِ»(٦).

قَالَ الذَّهَبِيُّ رحمه الله(٧): «مِنَ التَّفَرُّغِ لِلْعِبَادَةِ: السَّعْيُ فِي السَّبَبِ؛ لَاسِيَّمَا لِمَنْ لَهُ عِيَالٌ».

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الإِيمَانِ: بَابٌ مَا جَاءَ إِنَّ الأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ...، (٥٥)، وَمُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الزَّكَاةِ: بَابُ فَضْلِ النَّفَقَةِ وَالصَّدَقَةِ عَلَىٰ الْأَقْرَبِينَ..، (١٠٠٢).

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «**السُّنَنِ**»: كِتَابُ الْأَدَبِ: بَابٌ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ، (٤٧٩٨).
وَالْحَدِيث صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «**صَحِيحِ التَّرْغِيبِ والتَّرْهِيبِ**»: (٣/ ٨، رقم ٢٦٤٣).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ المَغَازِي: بَابُ بَعْثِ أَبِي مُوسَىٰ، وَمُعَاذٍ إِلَىٰ اليَمَنِ قَبْلَ حَجَّةِ الوَدَاعِ، (٤٣٤١)، مِنْ رِوَايَةِ: أَبِي بُرْدَةَ... قَالَ: قَالَ مُعَاذٌ لِأَبِي مُوسَىٰ: «كَيْفَ تَقْرَأُ القُرْآنَ؟»... الحديث.

(٤) أخرجه ابن المبارك في «**الزهد**»: (رقم ١٩٥)، والفسوي في «**المعرفة والتاريخ**»: (٢/ ٧١٤)، وأبو نعيم في «**الحلية**»: (٥/ ٦١)، والخطيب في «**الجامع لأخلاق الراوي**»: (١/ رقم ٦٨٩ و ٦٩٠)، بإسناد صحيح، عن سُفْيَانَ الثوري، عَنْ زُبَيْدٍ، قَالَ: «يَسُرُّنِي أَنْ يَكُونَ لِي فِي كُلِّ شَيْءٍ نِيَّةٌ حَتَّىٰ فِي الْأَكْلِ وَالنَّوْمِ»، وفي روية أبي نعيم: «أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لِي فِي كُلِّ شَيْءٍ نِيَّةٌ، حَتَّىٰ فِي طَعَامِي وَشَرَابِي».

(٥) «**جَامِعُ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ**»: (١/ ٧١).

(٦) أخرجه ابن المبارك في «**الزهد**» (رقم ١٥٥٢)، بإسناد صحيح، عن أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ عُقْبَةَ بن نافع، أنه قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْمُلَ لَهُ عَمَلُهُ فَلْيُحْسِنْ نِيَّتَهُ، فَإِنَّ اللهَ عز وجل يَأْجُرُ الْعَبْدَ إِذَا أَحْسَنَ نِيَّتَهُ».

(٧) «**السير**»: (٢/ ٥٧٠).

فَهَذَا تَفَرُّغٌ لِلْعِبَادَةِ؛ أَنْ يَأْخُذَ بِالْأَسْبَابِ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ لِتَحْصِيلِ الرِّزْقِ الْحَلَالِ.

فَيَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ ذِي بَصِيرَةٍ أَنْ يُصَحِّحَ مَفْهُومَهُ الْخَاطِئَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْعِبَادَةِ وَمَفْهُومِهَا، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الْعِبَادَةِ الَّتِي يَتَعَبَّدُ بِهَا للهِ جَلَّوَعَلَا، فَإِذَا فَهِمَ هَذَا فَهْمًا صَحِيحًا فَلَا شَكَّ أَنَّ الْحَيَاةَ كُلَّهَا تَصِيرُ -حِينَئِذٍ- عِبَادَةً للهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ كَمَا يُحِبُّ اللهُ جَلَّوَعَلَا وَيَرْضَىٰ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ قَبِيلِ الْعُبُودِيَّةِ الْعَامَّةِ؛ لِأَنَّهَا قَهْرِيَّةٌ تَسْخِيرِيَّةٌ، فَالْإِنْسَانُ عَبْدٌ للهِ مَقْهُورٌ مُسَخَّرٌ فِي جَمِيعِ حَالَاتِهِ؛ حَتَّىٰ فِي حَالَةِ عِصْيَانِهِ لَا يَخْرُجُ عَنْ قَيْدِ الْعُبُودِيَّةِ، وَلَا يَنْفَكُّ عَنْ أَسْرِهَا، بَلْ هُوَ عَبْدٌ للهِ جَلَّوَعَلَا، وَإِبْلِيسُ عَبْدٌ للهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بِهَذَا الْمَعْنَىٰ؛ فَهُوَ مَقْهُورٌ مُسَخَّرٌ مَرْبُوبٌ، وَأَمَّا الْمَعْنَىٰ الْمُرَادُ فَهُوَ: أَنْ تَكُونَ الْحَيَاةُ كُلُّهَا ظَاهِرُهَا وَبَاطِنُهَا، بَادِيهَا وَخَافِيهَا عِبَادَةً للهِ جَلَّوَعَلَا بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ، فَكُلُّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ الْبَاطِنَةِ فَهُوَ عِبَادَةٌ للهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بِاعْتِبَارِ مَا يُتَعَبَّدُ بِهِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَعَلَيْنَا أَنْ نَجْتَهِدَ فِي تَصْحِيحِ هَذِهِ الْمَفَاهِيمِ، وَفِي مَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهَا الَّتِي أَرَادَهَا الدِّينُ؛ لِأَنَّ مَعْرِفَتَهَا عَلَىٰ الْوَجْهِ الْحَقِّ يُغَيِّرُ شَكْلَ الْحَيَاةِ، وَيَضَعُ الْمَرْءَ عَلَىٰ رَأْسِ طَرِيقِهِ الْمُسْتَقِيمِ؛ وَحِينَئِذٍ يَكُونُ إِلَىٰ الْوُصُولِ أَدْنَىٰ، وَيَكُونُ إِلَىٰ تَحْصِيلِ الْغَايَةِ أَقْرَبَ؛ وَإِلَّا: فَـ

سَـــارَتْ مُشَـــرِّقَةً وَسِـــرْتُ مُغَرِّبًـــا ... شَـــتَّانَ بَـــيْنَ مُشَـــرِّقٍ وَمُغَـــرِّبِ

وَاللهُ -تَعَالَىٰ- الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ.

أَرْكَانُ الْعِبَادَةِ

إِنَّ اللهَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مِنْ حِكْمَتِهِ: جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ يُرَادُ قِيَامُهُ أَرْكَانًا يَقُومُ عَلَيْهَا وَيَعْتَمِدُ، وَمِنْ ذَلِكَ: عِبَادَةُ اللهِ جَلَّوَعَلَا، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَقُومَ وَتُسَمَّىٰ عِبَادَةً إِلَّا إِذَا تَوَفَّرَتْ فِيهَا هَذِهِ الْأَرْكَانُ.

وَهَذِهِ الْأَرْكَانُ هِيَ:

الرُّكْنُ الْأَوَّلُ: الْمَحَبَّةُ: وَالْمُرَادُ بِهَا: أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ مُحِبًّا للهِ -تَعَالَىٰ-، وَمَحَبَّتُهُ لَهُ مُنْتَهَىٰ الْحُبِّ، فَيَفْعَلُ الْعِبَادَاتِ بِدَافِعِ مَحَبَّتِهِ للهِ، وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ لَهُ، طَلَبًا فِي إِرْضَائِهِ، وَطَلَبًا فِي تَحْصِيلِ مَرْضَاتِهِ، وَالَّذِي يَدْفَعُهُ لِفِعْلِ الْعِبَادَةِ هُوَ مَحَبَّتُهُ لَهُ ﷻ، وَهَذَا أَعْظَمُ أَرْكَانِ الْعُبُودِيَّةِ، فَمَنْ لَا يُحِبُّ اللهَ لَا يَكُونُ لَهُ عَابِدًا،

وَلَيْسَ فِي الْوُجُودِ مَنْ هُوَ أَجْدَرُ مِنَ اللهِ ﷻ بِأَنْ يُحَبَّ، فَهُوَ صَاحِبُ الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ وَالْجُودِ وَالْكَرَمِ، وَهُوَ صَاحِبُ الْعَطَاءِ وَالْمِنَّةِ، الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا، وَخَلَقَ لَهُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، وَخَلَقَهُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَصَوَّرَهُ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ، وَكَرَّمَهُ وَفَضَّلَهُ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَهُ، وَرَزَقَهُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَعَلَّمَهُ الْبَيَانَ، وَاسْتَخْلَفَهُ فِي الْأَرْضِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ؛ فَمَنْ أَوْلَىٰ مِنَ اللهِ بِأَنْ يُحَبَّ؟!!

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ(١): «لَكِنَّ الْعِبَادَةَ الْمَأْمُورَ بِهَا تَتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ الذُّلِّ وَمَعْنَىٰ الْحُبِّ، فَهِيَ تَتَضَمَّنُ غَايَةَ الذُّلِّ للهِ -تَعَالَىٰ- بِغَايَةِ الْمَحَبَّةِ لَهُ».

فَمَنْ عَبَدَ اللهَ وَلَمْ يَكُنْ مُحِبًّا لَهُ فَلَا عِبَادَةَ لَهُ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ عِبَادَتُهُ قَائِمَةً عَلَىٰ مَحَبَّةِ اللهِ وَتَعْظِيمِهِ، وَدَلِيلُ الْمَحَبَّةِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

الرُّكْنُ الثَّانِي: الرَّجَاءُ:

وَالرَّجَاءُ مِنَ الْأَمَلِ، نَقِيضُ الْيَأْسِ.

وَالرَّجَاءُ رُكْنٌ فِي الْعِبَادَةِ، وَالْمُرَادُ بِهِ: هُوَ أَنْ يَفْعَلَ الْعَبْدُ الْعِبَادَةَ بِدَافِعِ الرَّجَاءِ فِي ثَوَابِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، وَرَجَاءِ مَرْضَاتِهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ النَّافِعُ، فَهُوَ الْمَرْجُوُّ جَلَّ وَعَلَا وَحْدَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ.

وَالرَّجَاءُ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَنَالُ بِهَا الْعَبْدُ مَا يَرْجُوهُ مِنَ اللهِ، وَدَلِيلُ كَوْنِهِ مُقَرِّبًا إِلَىٰ اللهِ: قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ- فِي وَصْفِ بَعْضِ أَنْبِيَائِهِ، وَذِكْرِ عِبَادَتِهِمْ وَالدَّافِعِ لَهَا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ﴾ [الزمر: ٩].

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أُبَالِي**»(٢). أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».

---

(١) «**العبودية**» ضمن «**مجموع الفتاوىٰ**»: (١٠/ ١٥٣).

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «**الْجَامِعِ**»: أَبْوَابُ الدَّعَوَاتِ، (٣٥٤٠).
قال التِّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ»، وَوَافَقَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «**الصَّحِيحَةِ**»: (١/ ٢٤٩، رقم ١٢٧).

وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثٍ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ**»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ».

وَفِي عَدَمِ رَجَاءِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ يَأْسٌ وَقُنُوطٌ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَهَذَا مُحَرَّمٌ لَا يَجُوزُ؛ بَلْ هُوَ كُفْرٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

الرُّكْنُ الثَّالِثُ مِنْ أَرْكَانِ الْعِبَادَةِ: الْخَوْفُ:

فَكَمَا أَنَّ الْمُسْلِمَ يَعْبُدُ رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حُبًّا لَهُ، وَرَجَاءً فِي ثَوَابِهِ، وَطَمَعًا فِي جَنَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ كَذَلِكَ يَعْبُدُهُ خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ، وَحَذَرًا مِنْ نَارِهِ.

وَالْخَوْفُ: هُوَ تَوَقُّعُ الْعُقُوبَةِ عَلَىٰ مَجَارِي الْأَنْفَاسِ.

وَقِيلَ: الْخَوْفُ: اضْطِرَابُ الْقَلْبِ وَحَرَكَتُهُ مِنْ تَذَكُّرِ الْمَخُوفِ.

يَجِبُ عَلَىٰ الْعَابِدِ أَنْ يَعْبُدَ اللهَ بِدَافِعِ مَا مَضَىٰ مِنَ الْأَرْكَانِ؛ مِنَ الْمَحَبَّةِ، وَالرَّجَاءِ، وَبِدَافِعِ الْخَوْفِ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَمِنْ أَدِلَّةِ وُجُوبِ الْخَوْفِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وَقَالَ ﷺ: «**وَاللهِ! إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ للهِ**»(٢). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «يَا رَسُولَ اللهِ! قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ أَهُوَ الَّذِي يَزْنِي، وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ، وَيَسْرِقُ؟

قَالَ: «**لَا يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ يَصُومُ، وَيُصَلِّي، وَيَتَصَدَّقُ، وَيَخَافُ أَلَّا يُقْبَلَ مِنْهُ**»(٣).

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الْجَنَّةِ: بَابُ الْأَمْرِ بِحُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ تَعَالَىٰ عِنْدَ الْمَوْتِ، (٢٨٧٧).

(٢) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ.

(٣) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «**الْجَامِعِ**»: أَبْوَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ: بَابٌ وَمِنْ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ، (٣١٧٥)، وَابْنُ مَاجَهْ فِي كِتَابُ الزُّهْدِ: بَابُ التَّوَقِّي عَلَىٰ الْعَمَلِ، (٤١٩٨).

وَالْحَدِيث صَحَّحَهُ لِغَيْرِهِ الْأَلْبَانِيُّ فِي «**الصَّحِيحَةِ**»: (١/ ١٦٢، رقم ٣٠٤).

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «عَمِلُوا -وَاللهِ- بِالطَّاعَاتِ وَاجْتَهَدُوا فِيهَا، وَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ جَمَعَ إِحْسَانًا وَخَشْيَةً، وَالْمُنَافِقَ إِسَاءَةً وَأَمْنًا».

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «الْخَوْفُ الْمَحْمُودُ الصَّادِقُ: مَا حَالَ بَيْنَ صَاحِبِهِ وَبَيْنَ مَحَارِمِ اللهِ ﷻ».

وَهَذِهِ مِنْ فَوَائِدِهِ الْعَظِيمَةِ؛ وَهُوَ أَنَّهُ يَحْمِي الْعَبْدَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ.

وَمِنْ فَوَائِدِ الْخَوْفِ: أَنَّهُ يَدْفَعُ إِلَىٰ فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَالْمُسَارَعَةِ فِيهَا.

وَبِهَذَا نَعْرِفُ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَقُومُ وَتَسْتَقِيمُ إِلَّا بِهَذِهِ الْأَرْكَانِ الثَّلَاثَةِ، فَلَا بُدَّ مِنَ اجْتِمَاعِهَا فِي قَلْبِ الْعَبْدِ، وَأَنْ تَكُونَ مُجْتَمِعَةً حَالَ فِعْلِهِ لِلْعِبَادَةِ؛ بَلِ الدَّافِعُ لِفِعْلِهَا اجْتِمَاعُهَا.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «الْقَلْبُ فِي سَيْرِهِ إِلَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ- بِمَنْزِلَةِ الطَّائِرِ، فَالْمَحَبَّةُ رَأْسُهُ، وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ جَنَاحَاهُ، فَمَتَىٰ سَلِمَ الرَّأْسُ وَالْجَنَاحَانِ فَالطَّائِرُ جَيِّدُ الطَّيَرَانِ، وَمَتَىٰ قُطِعَ الرَّأْسُ مَاتَ الطَّائِرُ، وَمَتَىٰ فُقِدَ الْجَنَاحَانِ فَهُوَ عُرْضَةٌ لِكُلِّ صَائِدٍ وَكَاسِرٍ».

أَقْسَامُ الضُّلَّالِ فِي تَحْقِيقِ أَرْكَانِ الْعِبَادَةِ

لَقَدْ ضَلَّ فِي تَحْقِيقِ أَرْكَانِ الْعِبَادَةِ أَقْوَامٌ:

* **مِنْهُمُ: الْقَبْرِيُّونَ**: فَإِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ حُبًّا لَهُ فَقَطْ، فَلَا يَرْجُونَ ثَوَابَهُ، وَلَا يَخَافُونَ عَذَابَهُ، فَأَبْطَلُوا كُلَّ سَبَبٍ يَؤُولُ إِلَىٰ الرَّجَاءِ؛ كَالدُّعَاءِ، وَالْإِنَابَةِ، وَالتَّضَرُّعِ، وَنَحْوِهَا، كَمَا أَبْطَلُوا كُلَّ سَبَبٍ يَؤُولُ إِلَىٰ خَوْفِ اللهِ؛ كَدَوَامِ الْمُرَاقَبَةِ وَالْمُحَاسَبَةِ وَنَحْوِهِمَا.

* **وَكَذَلِكَ ضَلَّ فِيهِ الْمُرْجِئَةُ**؛ فَإِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ بِالرَّجَاءِ فَقَطْ، فَلَا مَحَبَّةَ وَلَا خَوْفَ، بَلْ عِمَادُ عِبَادَتِهِمْ عَلَىٰ الرَّجَاءِ، وَهَذَا الَّذِي دَفَعَ كَثِيرًا مِنْهُمْ إِلَىٰ الِانْغِمَاسِ فِي الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ وَارْتِكَابِ الْمُحَرَّمَاتِ -عِيَاذًا بِاللهِ ولياذا بِجَنَابِهِ الرَّحِيمِ-.

* **وَفِي مُقَابِلِ هَؤُلَاءِ: الْخَوَارِجُ** الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ بِالْخَوْفِ فَقَطْ، فَلَا يُحِبُّونَ وَلَا يَرْجُونَ، بَلْ يَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ خَوْفًا مِنْ عَذَابِهِ فَقَطْ.

---

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «**الزُّهْدِ**»: (رقم ٩٨٥)، وَالطَّبَرِيُّ فِي «**جَامِعِ الْبَيَانِ**»: (١٨/ ٣٣).

(٢) «**مَدَارِجُ السَّالِكِينَ**»: (١/ ٥١٠).

(٣) «**مَدَارِجُ السَّالِكِينَ**»: (١/ ٥١٣).

شُرُوطُ صِحَّةِ الْعِبَادَةِ

لَا بُدَّ مِنْ صِحَّةِ أَرْكَانِ الْعِبَادَةِ، فَلَهَا شُرُوطُ صِحَّةٍ لَا بُدَّ أَنْ تَتَوَفَّرَ، وَدَلَّ عَلَيْهَا الْكِتَابُ، وَالسُّنَّةُ، وَإِجْمَاعُ الْأُمَّةِ:

وَأَوَّلُ شُرُوطِ صِحَّةِ الْعِبَادَةِ: الْإِخْلَاصُ؛ فَالْإِخْلَاصُ هُوَ لُبُّ الدِّينِ، وَعَمُودُهُ الْأَعْظَمُ، وَهُوَ لُغَةً: «تَصْفِيَةُ الشَّيْءِ وَتَنْقِيَتُهُ»، يُقَالُ: خَلُصَ الشَّيْءُ مِنَ الشَّوَائِبِ إِذَا صَفَا، وَأَخْلَصَ الشَّيْءَ: نَقَّاهُ، وَخَلَّصَهُ: أَزَالَ عَنْهُ مَا يُكَدِّرُهُ.

وَاخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْعُلَمَاءِ فِي الْمُرَادِ بِهِ شَرْعًا، فَقِيلَ: هُوَ «قَصْدُ الْمَعْبُودِ وَحْدَهُ بِالْعِبَادَةِ»، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

يُرِيدُ الْعَبْدُ بِطَاعَتِهِ التَّقَرُّبَ إِلَىٰ اللهِ -سُبْحَانَهُ- دُونَ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ؛ مِنْ تَصَنُّعٍ لِمَخْلُوقٍ، أَوِ اكْتِسَابِ مَحْمَدَةٍ عِنْدَ النَّاسِ، أَوْ مَحَبَّةِ مَدْحٍ مِنَ الْخَلْقِ، أَوْ مَعْنًىٰ مِنَ الْمَعَانِي سِوَىٰ التَّقَرُّبِ بِهِ إِلَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ-.

وَقَدْ وَرَدَتْ أَدِلَّةٌ كَثِيرَةٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تُقَرِّرُ هَذَا الشَّرْطَ، مِنْهَا: قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ- آمِرًا نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يُوَضِّحَ لِأُمَّتِهِ مَا أُمِرَ بِهِ مِنْ قِبَلِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ [الرعد: ٣٦].

وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الزمر: ١٤].

وَقَالَ ﷺ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»(١).

وَقَالَ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ أَجْسَامِكُمْ وَلَا إِلَىٰ صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ**»(٢).

فَهَذِهِ الْأَدِلَّةُ تَدُلُّ عَلَىٰ وُجُوبِ إِخْلَاصِ النِّيَّةِ فِي جَمِيعِ الْعِبَادَاتِ.

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ بَدْءِ الوَحْيِ: باب كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الوَحْيِ...، (١)، وَمُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الْإِمَارَةِ: بَابُ قَوْلِهِ «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ»، (١٩٠٧)، من حديث: عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ البر: بَابُ تَحْرِيمِ ظُلْمِ الْمُسْلِمِ...، (٢٥٦٤)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

فَالْإِخْلَاصُ شَرْطٌ لِصِحَّةِ الْعَمَلِ وَقَبُولِهِ إِنْ كَانَ عِبَادَةً مَحْضَةً؛ كَالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَالْحَجِّ، وَالطَّوَافِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَشَرْطٌ لِحُصُولِ الثَّوَابِ إِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ؛ كَالْأَكْلِ، وَالشُّرْبِ، وَالنَّوْمِ، وَالْكَسْبِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْعَادَاتِ تَتَحَوَّلُ بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ إِلَىٰ عِبَادَاتٍ.

وَمَا أَعْظَمَ مَقَامَ الْإِخْلَاصِ عِنْدَ اللهِ!

وَمَا أَشَقَّهُ عَلَىٰ النَّفْسِ!

لِذَا جَدِيرٌ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يُجَاهِدَ نَفْسَهُ وَيُحَاسِبَهَا فِي كُلِّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ؛ بَلْ فِي كُلِّ مَقَامٍ وَلَحْظَةٍ.

الشَّرْطُ الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ مَبْنِيَّةً عَلَىٰ اعْتِقَادٍ صَحِيحٍ: أَنْ يَكُونَ الْعَابِدُ مُؤْمِنًا بِمَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَعَنْ رَسُولِهِ، مُصَدِّقًا بِكُلِّ خَبَرٍ وَجَبَ الْإِيمَانُ بِهِ.

دَلَّ عَلَىٰ هَذَا الشَّرْطِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ ابْنَ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ؛ فَهَلْ ذَلِكَ نَافِعُهُ؟».

قَالَ: «**لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَلَوْلَا هَذَا الشَّرْطُ لَصَحَّتْ أَعْمَالُ كَثِيرَةٌ مِنْ أَصْحَابِ النِّحَلِ وَالْفِرَقِ الضَّالَّةِ الَّذِينَ يُخْلِصُونَ فِي عِبَادَتِهِمْ للهِ، فَتَجِدُهُمْ لَا يُرِيدُونَ بِالْقُرَبِ الَّتِي يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَّا اللهِ؛ لَكِنْ عِنْدَهُمْ مِنَ الْبِدَعِ وَالنِّحَلِ مَا يَقْدَحُ بِإِيمَانِهِمْ، أَوْ يُزِيلُهُ بِالْكُلِّيَّةِ.

إِذَنْ؛ لَا بُدَّ مِنْ صِحَّةِ الِاعْتِقَادِ حَتَّىٰ تُقْبَلَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ.

الشَّرْطُ الثَّالِثُ مِنْ شُرُوطِ صِحَّةِ الْعِبَادَةِ: الْمُتَابَعَةُ:

وَمَعْنَاهَا: أَنْ تَكُونَ عِبَادَةُ الْمُسْلِمِ تَابِعَةً لِمَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، وَهَذَا هُوَ تَحْقِيقُ شَهَادَةِ أَنَّ (**مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**)، وَهُوَ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا نَهَىٰ عَنْهُ وَزَجَرَ، وَأَلَّا يُعْبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ ﷺ، لَا يُعْبَدُ اللهُ بِالْبِدَعِ.

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الْإِيمَانِ: بَابُ الدَّلِيلِ عَلَىٰ أَنَّ مِنْ مَاتَ عَلَىٰ الْكُفْرِ لَا يَنْفَعُهُ عَمَلٌ، (٢١٤).

دَلِيلُ هَذَا الشَّرْطِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَدْ جَمَعَ اللهُ بَيْنَ هَذِهِ الشُّرُوطِ الثَّلَاثَةِ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وَبَيَانُ ذَلِكَ:

الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: وَهُوَ الْإِخْلَاصُ، وَدَلِيلُهُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾.

وَالشَّرْطُ الثَّانِي: وَهُوَ الْمُتَابَعَةُ، وَدَلِيلُهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، وَالْمُحْسِنُ: هُوَ مَا كَانَ عَمَلُهُ وَفْقَ مَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ.

الشَّرْطُ الثَّالِثُ: صِحَّةُ الْمُعْتَقَدِ، وَدَلِيلُهُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾.

فَلَا بُدَّ مِنْ تَوَفُّرِ هَذِهِ الشُّرُوطِ فِي الْعِبَادَةِ حَتَّىٰ تَكُونَ صَالِحَةً مَقْبُولَةً عِنْدَ اللهِ -تَعَالَىٰ-، أَمَّا إِذَا اخْتَلَّ شَرْطٌ مِنْ هَذِهِ الشُّرُوطِ فَإِنَّهَا لَا تَصِحُّ، وَبِالتَّالِي لَا تَنْفَعُ صَاحِبَهَا؛ بَلْ تَكُونُ وَبَالًا عَلَيْهِ.

مَنْزِلَةُ الْعِبَادَةِ فِي الْإِسْلَامِ وَثَمَرَتُهَا

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ! دُلَّنِي عَلَىٰ عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ».

قَالَ: «**تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ**».

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الصُّلْحِ: بَابُ إِذَا اصْطَلَحُوا عَلَىٰ صُلْحِ جَوْرٍ فَالصُّلْحُ مَرْدُودٌ، (٢٦٩٧)، وَمُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الْأَقْضِيَةِ: بَابُ رَدِّ مُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، (١٧١٨).

قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا أَزِيدُ عَلَىٰ هَذَا شَيْئًا أَبَدًا، وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ، فَلَمَّا وَلَّىٰ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ هَذَا**»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ.

النَّبِيُّ ﷺ هُوَ عَبْدُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حَقًّا وَصِدْقًا، وَقَدْ وَصَفَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهَذَا الْوَصْفِ الْكَرِيمِ فِي أَعْظَمِ مَقَامَاتِهِ؛ فَوَصَفَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالْعُبُودِيَّةِ لَهُ -تَعَالَىٰ- فِي مَقَامِ التَّحَدِّي لِلْكُفَّارِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَوَصَفَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي مَقَامِ الْإِسْرَاءِ بِهِ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ، فَذَكَرَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالْعُبُودِيَّةِ، وَأَضَافَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِنَفْسِهِ تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا وَتَعْظِيمًا، وَوَصَفَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالْعُبُودِيَّةِ فِي مَقَامِ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، فَهَذِهِ أَشْرَفُ الْمَقَامَاتِ.

وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَصِفُ عَبْدَهُ ﷺ بِهَذَا الْوَصْفِ الْكَرِيمِ، فَيُثْنِي عَلَيْهِ بِهِ الثَّنَاءَ الْعَظِيمَ؛ لِأَنَّهُ لِهَذَا خَلَقَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ حَقَّقَ ذَلِكَ التَّحْقِيقَ الصَّحِيحَ، وَأَتَىٰ بِهِ عَلَى النَّحْوِ الْمَطْلُوبِ مِنْهُ ﷺ، وَهُوَ خَيْرُ عِبَادِ اللهِ ﷺ، وَأَكْرَمُهُمْ عَلَىٰ اللهِ، وَأَعْظَمُهُمْ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ ﷺ، فَوَصَفَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِذَلِكَ لِذَلِكَ؛ حَتَّىٰ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَأْتِي بِهَذَا الْوَصْفِ لِنَفْسِهِ فِي الْمَقَامَاتِ الَّتِي لَا يَفْهَمُهَا بَعْضُ مَنْ يُعَامِلُهُ؛ فَإِنَّ جَارِيَةً مَرَّتْ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَىٰ الْأَرْضِ يَأْكُلُ، فَقَالَتْ: «انْظُرُوا إِلَيْهِ! يَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ، وَيَأْكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ».

قَالَ: «**إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، أَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ، وَآكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ**».

وَلَمَّا رَآهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَرَهَبَهُ، وَارْتَعَدَتْ مِنْ رُؤْيَتِهِ فَرَائِصُهُ؛ رَهْبَةً مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ قَالَ: «**هَوِّنْ عَلَيْكَ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِن قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ**(٢) **بِمَكَّةَ** ﷺ»(٣).

وَنَهَىٰ ﷺ عَنِ الْغُلُوِّ فِيهِ؛ فَإِنَّهُ ﷺ قَالَ: «**إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٧) ومسلم (١٤).

(٢) (القَدِيد): لَحْمٌ يقطَّع، ويمَلَّح، ويجفَّف في الشَّمس والهواء، ثم يحمل في الأسفار عند العرب.
انظر: «**النهاية**»: ٤/ ٢٢، مادة: (قدد).

(٣) أخرجه ابن ماجه في «**السنن**»: ٢/ ١١٠١، رقم (٣٣١٢)، من حديث: أَبِي مَسْعُودٍ، قَالَ: أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ، فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: «**هَوِّنْ عَلَيْكَ**،...» الحديث.
والحديث صححه الألباني في «**صحيح الجامع**»: ٢/ ١١٨٥، رقم (٧٠٥٢)، وانظر: «**الصحيحة**»: ٤/ ٤٩٦، رقم (١٨٧٦).

(٤) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: كتاب أحاديث الأنبياء: بَابُ قَوْلِ اللهِ وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ..، (٣٤٤٥)، من

فَهَذَا مَا نَقُولُهُ ﷺ: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ﷺ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُوَازِنُ بَيْنَ حَقِّ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الَّذِي هُوَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ الْمَحْضَةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالصَّلَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَرَائِضِ الْعِبَادَاتِ وَنَوَافِلِهَا، وَيُوَازِنُ بَيْنَ حَقِّ النَّفْسِ، وَحَقِّ الْأَهْلِ، وَحَقِّ الْمُسْلِمِينَ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحُقُوقِ، فَكَانَ ﷺ بِذَلِكَ عَبْدًا للهِ حَقًّا وَصِدْقًا.

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه **قال**: «جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَىٰ بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا -أَيْ: عَدُّوهَا قَلِيلَةً-، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟!! قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا».

فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»(١). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ.

الْعِبَادَةُ تَنْتَظِمُ جَمِيعَ أُمُورِ الْحَيَاةِ مِمَّا يُحِبُّهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ، فَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ ﷺ -وَهُوَ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا إِلَّا بِنِيَّةٍ ﷺ- مِنْ أَلْوَانِ الْعِبَادَةِ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ وَلَكِنْ مَنْ تَوَقَّفَ عِنْدَ حُدُودِ الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ فَجَعَلَ الْعِبَادَةَ مَقْصُورَةً عَلَىٰ الشَّعَائِرِ مِنَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَالْحَجِّ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ ظَاهِرٌ، وَغَفَلَ عَمَّا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَاتِ؛ فَقَدْ قَصَّرَ فِي فَهْمِ الدِّينِ تَقْصِيرًا عَظِيمًا، وَفَوَّتَ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَجْرًا كَرِيمًا جَزِيلًا؛ لِأَنَّهُ فَوَّتَ أُمُورًا كَثِيرَةً يَتَحَصَّلُ مِنْ وَرَائِهَا عَلَىٰ الثَّوَابِ لَوْ صَلَحَتْ لَهُ فِيهَا نِيَّةٌ صَادِقَةٌ؛ حَتَّىٰ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَا ذَكَرَهُ الرَّسُولُ ﷺ: «**أَصُومُ وَأُفْطِرُ**» فَفِطْرُهُ عِبَادَةٌ وَصَوْمُهُ عِبَادَةٌ، «**أُصَلِّي وَأَرْقُدُ**» فَصَلَاتُهُ عِبَادَةٌ، وَرُقَادُهُ عِبَادَةٌ، «وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ»، وَهَذِهِ عِبَادَةٌ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، «**فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»؛ شَرِيطَةَ أَنْ يَأْتِيَ الْمَرْءُ فِي الْمُبَاحَاتِ بِنِيَّةٍ صَالِحَةٍ صَادِقَةٍ لِرَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ.

=

حديث: ابْنِ عَبَّاسٍ، سَمِعَ عُمَرَ رضي الله عنه، يَقُولُ عَلَىٰ المِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «**لَا تُطْرُونِي**...» الحديث.

قَوْله: «**لَا تطروني**» الإطراء: مُجَاوزَة الْحَد فِي الْمَدْح وَالْكذب فِيهِ، وَذَلِكَ أَن النَّصَارَىٰ أفرطوا فِي مدح عِيسَىٰ وإطرائه بِالْبَاطِلِ، وجعلوه ولدا، فَمَنعهُمْ النَّبِي ﷺ من أَن يطروه بِالْبَاطِلِ، وقوله: «**فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ**»، أَيْ: لَسْتُ إِلَّا عَبْدًا، فَلَا تَعْتَقِدُوا فِيَّ شَيْئًا يُنَافِي الْعُبُودِيَّةَ، وقوله: «**فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»، أي: لِأَنِّي مَوْصُوفٌ بِالْعُبُودِيَّةِ وَالرِّسَالَةِ، فَلَا تَقُولُوا فِيَّ شَيْئًا يُنَافِيهِمَا مِنْ نُعُوتِ الْأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ.

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣).

وَقَدْ كَتَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ إِلَىٰ مَسْلَمَةَ بْنِ مَخْلَدٍ: «أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَمِلَ بِطَاعَةِ اللهِ أَحَبَّهُ اللهُ، فَإِذَا أَحَبَّهُ اللهُ، حَبَّبَهُ إِلَىٰ خَلْقِهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَمِلَ بِمَعْصِيَةِ اللهِ أَبْغَضَهُ اللهُ، فَإِذَا أَبْغَضَهُ اللهُ بَغَّضَهُ إِلَىٰ خَلْقِهِ».

فَهَذَا فَهْمٌ مُسْتَقِيمٌ مِنْ هَذَا الصَّحَابِيِّ الْكَرِيمِ رضي الله عنه.

وَكَانَ سَلَفُنَا -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ- يَفْهَمُونَ هَذِهِ الْأُمُورَ الْعَظِيمَةَ الْفَهْمَ الَّذِي يَجِبُ، فَيَأْتُونَ فِيهَا بِمَا يُحِبُّهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَيَرْضَاهُ.

مُبْطِلَاتُ الْعِبَادَةِ(١)

هَذِهِ الْعِبَادَةُ الْعَظِيمَةُ لَا بُدَّ مِنَ الْإِتْيَانِ بِأَرْكَانِهَا، وَتَوَفُّرِ صِحَّةِ هَذِهِ الْأَرْكَانِ، وَكَذَلِكَ لَا بُدَّ مِنَ اجْتِنَابِ مُبْطِلَاتِهَا، فَلَهَا مُبْطِلَاتٌ:

أَوَّلُهَا: الْإِشْرَاكُ فِي الْعِبَادَةِ: وَهُوَ أَنْ يُرِيدَ الْعَبْدُ بِعِبَادَتِهِ غَيْرَ اللهِ أَوْ مَعَ اللهِ، فَهَذَا مُسْتَحِقٌّ لِلْعَذَابِ الْعَظِيمِ وَبَاطِلٌ عَمَلُهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

وَقَدْ أَوْحَىٰ اللهُ -تَعَالَىٰ- إِلَىٰ جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ أَنَّ الشِّرْكَ مُحْبِطٌ لِلْعَمَلِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وَقَالَ -سُبْحَانَهُ- فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ: «**أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(٢). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

* **الرِّدَّةُ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ تَعَالَىٰ-**: وَهِيَ أَنْ يَتْرُكَ الْمُسْلِمُ دِينَهُ، وَيَعْتَنِقُ أَيَّ مِلَّةٍ مِنْ مِلَلِ الْكُفْرِ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ-؛ فَإِنَّ الرِّدَّةَ مُحْبِطَةٌ لِلْعَمَلِ وَالْعِبَادَةِ السَّابِقَةِ إِذَا مَاتَ الْمُرْتَدُّ عَلَىٰ رِدَّتِهِ عَلَىٰ أَرْجَحِ قَوْلَيِ الْعُلَمَاءِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

* **وَمِمَّا يُبْطِلُ الْعِبَادَةَ: الرِّيَاءُ**: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ قَصْدُهُ وَجْهَ اللهِ، لَكِنْ يُحَسِّنُ هَيْئَةَ الْعِبَادَةِ لِمَا يَرَىٰ مِنَ النَّاسِ، فَالْقَوْلُ الصَّحِيحُ إِنَّ عِبَادَتَهُ الَّتِي رَاءَىٰ فِيهَا بَاطِلَةٌ إِذَا كَانَتْ مِمَّا لَا يَتَجَزَّأُ كَالصَّلَاةِ، وَإِنْ كَانَتْ مِمَّا

---

(١) من التعليق علىٰ: «العبادة: تعريفها - أركانها - شروطها - مبطلاتها».

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

يَتَجَزَّأُ كَالصَّدَقَةِ، كَمَنْ تَصَدَّقَ بِمِائَةٍ أَرَادَ خَمْسِينَ مِنْهَا وَجْهَ اللهِ، ثُمَّ زَادَ خَمْسِينَ أُخْرَىٰ رِيَاءً، فَإِنَّهَا تُقْبَلُ الْخَمْسُونَ الَّتِي للهِ -تَعَالَىٰ-، وَتُرَدُّ الْخَمْسُونَ الْأُخْرَىٰ الَّتِي زَادَهَا لِأَجْلِ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

* **مِمَّا يُبْطِلُ الْعِبَادَةَ: الْمَنَّ فِيهَا**: فَالْمَنُّ بِالْعِبَادَةِ يُبْطِلُهَا، سَوَاءٌ مَنَّ الْفَاعِلُ بِهَا عَلَىٰ اللهِ أَوْ مَنَّ بِهَا عَلَىٰ خَلْقِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

فَالْمِنَّةُ للهِ وَحْدَهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَفِي كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِهِمْ، وَمِنْ أَفْضَلِهَا هِدَايَةُ الْعَبْدِ لِلْإِيمَانِ، فَإِذَا مَنَّ الْعَبْدُ بِطَاعَتِهِ عَلَىٰ اللهِ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، لَا يَنْفَعُهُ طَاعَةُ الْمُطِيعِ وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ الْعَاصِي.

إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ للهِ

عِبَادَ اللهِ! لَقَدْ حَدَّدَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْغَايَةَ الَّتِي لِأَجْلِهَا خَلَقَ الْخَلْقَ، فَقَالَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وَهَذَا أُسْلُوبُ قَصْرٍ حَصَرَ فِيهِ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْغَايَةَ مِنْ خَلْقِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِيمَا ذَكَرَهُ بَعْدُ مِنْ أَمْرِ عِبَادَتِهِ، وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ.

وَإِفْرَادُ اللهِ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- بِالْعِبَادَةِ: هُوَ صَرْفُ جَمِيعِ أَلْوَانِ الْعِبَادَةِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، هُوَ تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ، فَلَا يُعْبَدُ فِي الْحَقِيقَةِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا إِلَّا اللهُ، وَلَا يُصْرَفُ شَيْءٌ مِنْ أَلْوَانِ الْعِبَادَةِ إِلَّا للهِ، فَإِنْ صُرِفَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ لِغَيْرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَهُوَ الشِّرْكُ، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا يُسَامِحُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يَتَهَاوَنُ فِي الْحِسَابِ عَلَيْهِ.

لَا يَنْبَغِي أَنْ يُصْرَفَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللهِ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-، الْغَايَةُ مِنَ الْخَلْقِ الَّتِي لِأَجْلِهَا خَلَقَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ النَّاسَ، وَخَلَقَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْجِنَّ، وَخَلَقَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَخَلَقَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَالَّتِي لِأَجْلِهَا تُنْصَبُ الْمَوَازِينُ، وَتُتَطَايَرُ الصُّحُفُ، فَآخِذٌ بِيَمِينِهِ مِنْ

أَمَامَ، وَآخِذٌ بِشِمَالِهِ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، الْغَايَةُ الَّتِي لِأَجْلِهَا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ: هِيَ إِفْرَادُهُ بِالْعِبَادَةِ، وَإِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ.

هَذِهِ الْأُصُولُ الْعَظِيمَةُ مِنْ دِينَ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ عَلَىٰ الْمَرْءِ أَنْ يَعْرِفَهَا، وَأَنْ يَعْرِفَ حُدُودَهَا وَحَقِيقَتَهَا وَشُرُوطَ صِحَّتِهَا، وَأَنْ يُلِمَّ بِأَرْكَانِهَا، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي الْبُعْدِ عَنْ نَوَاقِضِهَا وَمَا يُبْطِلُهَا، وَإِلَّا فَهُوَ سَائِرٌ عَلَىٰ غَيْرِ سَبِيلٍ، وَمُجْتَهِدٌ فِي غَيْرِ تَحْصِيلٍ، وَبَاذِلٌ الْجُهْدَ فِي غَيْرِ طَائِلٍ.

فَنَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يُعَلِّمَنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَأَنْ يَنْفَعَنَا بِمَا عَلَّمَنَا، وَأَنْ يَزِيدَنَا عِلْمًا.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.